في التقليد والرعاية والتعبير عنهما

إحدى المؤمنات

صدر مقال عن أحد الرؤساء أثار جدلاً بين بعض المؤمنين مما حدا بإحدى الأخوات إلى كتابة ما يلي. إن سياسة أسرة التراث الأرثوذكسي هي الحفاظ على الصفحة كمجلة لا مدونة. من هنا أننا نتشدد في اختيار الآراء التي ننشرها كي تبقى دائماً في الخط والتعليم اللذين ننتهجهما ونؤمن بهما. لهذا ننشر هذا الرأي قناعةً بأنه يعبّر عن هذا الخط شكلاً ومضموناً (أسرة التراث الأرثوذكسي).

من المؤكد أن موضوع التمسك بالتقليد (سواء عنينا به التقليد المقدس أو تقاليد البشر) يثير الخلاف ما بين متمسك ومُجدد. سواء كان التمسك مُحقاً أو مجرد تعصبٍ أعمى أو كان التجديد تراخياً وتماهياً مع ما هو خاطئ أو كان ضرورةً هدفها الالتقاء بإنسان اليوم حيث هو لأخذه حيث يشاء الروح القدس.
ولكنَّ طرح أي موضوعٍ من قبل المرجعيات الروحية بعمومياتٍ ودون أمثلة واقعية يومية وشائعةٍ قد يسبب ضرراً أكثر مما يفيد، أياً يكن الرأي الذي يدعمه هذا الطرح، وذلك لأنه يتيح لكل طرفٍ أن يجد في موقف المرجعيات حجةً لمهاجمة الطرف الآخر، بدلاً من التأمل في ما هو مكتوب، واعتباره مرآة تكشف واقعه، وإسقاطه على حياته ومواقفه الشخصية لتصحيح ما هو خاطئ منها أو الالتزام بما هو صحيح.
ينطبق ذلك على موضوع "التقليد"، سواء كان الطَّرح في صفِّ المتمسكين به أو في صف دعاة التجديد، إذْ أنَّه ما لم يوضِح أيُّ موضوعٍ أو مقالٍ أو حديثٍ في هذا الشأن القواعدَ التي يستطيع المؤمن بموجبها تقييم صحة موقفه من التقليد، أو ما لم يطرح هذا المقال أو الحديث أمثلة عملية في هذا الخصوص ويُشرْ إلى المراجع الروحية المتعلقة به، فإن المؤمن يبقى حائراً تتلاطمه أمواج التعصب حيناً والتراخي حيناً آخر، لا يدري أيُّ الأمورِ المستحدثةِ خاطئةٌ يجب تجنبها كتجنب النار، وأيُّ الأمور "العتيقة" قشورٌ أو "سبتٌ" جُعِل للإنسانِ وليس الإنسان للسبت. تزداد المشكلة عمقاً إذا لم يكن مؤمنُ اليوم على علاقةٍ وثيقة بتقليد الكنيسة المقدس المُسلم لنا عبر العصور، وإذا لم يكن تحت إرشاد أبٍ روحي مستنيرٍ يستطيع أن ينقل إليه رحيق هذا التقليد بأمانة.
إذا ما نظرنا من حولنا اليومَ وجدنا السواد الأعظم من المسيحيين غير متمسكين بالتقليد، بأي تقليد، والاستثناءات قليلة إن لم تكن نادرةً، وصوتها خافتٌ أمام ضجيج حرّيات هذا العصر. فعصرنا اليوم يضع أمامنا من المغريات أو الصعوبات ما يكفي لجعلِ معظمنا يتراخى هنا أو هناك ويغض الطرف عن أمورٍ جوهرية، وآخرُ ما يحتاج إليه مؤمن اليوم هو حديثٌ عامٌ موجهٌ لانتقاد التمسك بالتقليد، حتى وإن كان القصدُ منه تلك القشور التي لا تمس جوهر الإيمان وأولئك الـ "المتزمتين" الحَرفيين الذين يقتلون الروح. ففي حين أن النية من النقد صالحةٌ إلا أن التعبير عنها بعمومياتٍ بدون تحديدٍ وتمييز واضح يُفضي إلى نتائج سلبية!
فإذا كان الالتزام بالتقاليد بدون تمييز يفرض أحمالاً ثقيلةً على المؤمن، فإن الـ "التحرر" و"التجديد" بدون تمييز أيضاً يؤدي بالمقابل، ولو بشكلٍ تدريجي، إلى تفلُّتٍ وانحدارٍ مثل مركبةٍ تنزل منحدراً بدون فرامل، وما لم توقفها العناية الإلهية فإن نهاية الطريق تكون وخيمة بلا شك. إذ لا يخفى على أحدٍ أن الاستهتار أو التراخي أو حتى معاداة التقليد هي الأمور عينها التي أوصلت الغرب إلى حالة انحطاطه الروحي اليوم.. وها نحن نشهد الحملات والمسيرات والقوانين والتشريعات لدعم الإجهاض والمثلية وغيرها من الانحرافات الأخلاقية التي ما كان لمسيحيي القرون الأولى أن يتصوروها حتى، فكم بالحري أن يناصروها. وكان الختامُ مؤخراً بسماح بابا الفاتيكان لكهنته بمنح البركة للأزواج المثليين، تحت شعارات المحبة وقبول الخاطئ ورفض الخطيئة.

فإلى أين نحن ذاهبون؟ إذا ما بدأ كلٌّ منا، وهو معصوبُ العينين، بالتلويح بسيف "التجديد" ظانّاً أنَّه "سيف الروح" عينه، مدفوعاً بحديثٍ روحيٍّ أُسيء فهمه، فلا بد في النهاية من أن يَطعن حتى التقليدَ المقدس نفسه، وبعضُ الطعنات قاتلة... فهل سنسير في ذلك الطريق الذي ساره الغرب قبلنا، ظانين أننا نقود موكب محاربة "الجمود" والـ"التعصب" والـ"التزمت"؟

ليت رُعاتنا لا يضعون بين أيدينا سيوفاً ذات حدَّين، نطعن بها بعضنا بعضاً بالحق حيناً وبالباطل حيناً آخر. ليت كتبهم وعظاتهم وأحاديثهم تكون واضحةً صريحة مباشرةً، تبتعد عن الضبابية وعن عرض المفارقات في حياة الرعية دون الإشارة بوضوحٍ إلى الصحيح منها وإلى الخاطئ، أو دون إعطاء كلمةِ فصلٍ تضع الأمور في نصابها الصحيح وتقوِّم المعوجَّ منها. ليت رعاتنا يشخّصون الأمراض بدقةٍ ويوصفون أعراضها قبل تقديم العلاج سواء كان بلسماً شافياً أو عمليةً جراحيةً أو بتراً نهائياً، لئلا يتركوا لنا، نحن المرضى، مهمة تطبيق العلاج، والذي غالباً ما نطبقه على قريبنا ظناً منّا أنه هو المقصود وليس نحن. وفي الختام، لَيتهم يمضون بنا إلى المناهل الروحية التي استقوا منها إرشاداتهم، علَّنا نتواضع ونعود إليها بأنفسنا وقت الحاجة حين يعوزنا التمييز وتنقصنا الحكمة.